

## الفصل الحادي عشر

### صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية

٥٢ - حالة العالم الإسلامي

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التي ساعدته على بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الإسلامى فى سيات عميق فالأشرف يتنازعون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنه خطب لفلان على منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال إفريقية أو العراق أو طبرستان إلخ. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنوزنكى «ممالك السلاجقة» ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩ هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائداً عاماً لجنوده.

فلما احتلت أحكام مصر وغلب الخلفاء على أمرهم تواتب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاهما فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد زرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلا إقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر «احتلال عسكرى» فأرسل مع أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل زرغاماً وعين شاوراً محله فنكث وعده واستعان بالصليبيين على اخراج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفى سنة ٥٦٢ هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الإسكندرية واثخن فى الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيراً اتفقوا على أن تبرح جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن

الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين عَلَى أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواب المدينة ويعطى لها معاشاً سنوياً مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعوا فى استملاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء عَلَى مدينة بلبيس وأفحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاثت الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بإرسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة عَلَى راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين فى سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل فى قطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وقتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزرته توفى ﴿ حَتَّى إِذَا فَرَحوْا بِمَا آوْتُوْا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً ﴾<sup>(١)</sup> فهب أمراء الأجدد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسميها طائفاً أنه صغير السن قليل الاختبار و الدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله. وطمع الفرنج فى صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥ هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم الشامية وناوأ الكرك فخافوا العقبي وارتدوا عَلَى أعقابهم فافتقاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ريف غزة وفتح فوضة ليلة «العقبة» ثم أرسل اخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمه إلى مصر فدبت الغيرة فى صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميون ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقض خطبة العاضد ويخطب إلى المستضى العاضى ابتداء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلاً ثم أسر سنة ٥٦٧ هـ وسنة ١١٧١م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضى وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤

٢٦١ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبي فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزاً بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان إذا ما اقترب منه قفل راجعاً إلى مصر متمللاً بالأعدار وظل يراوغ أحدهما الآخر حتى توفي نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمه وتربص مترقباً حصول فتنة أو خلاف في بيت زنكى فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذى كان يخاطبه بالملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلمك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣ هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبسث السرايا للغارة والإرهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغته الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السم

نجونا من الموت الوحى غير مرة وما يثبت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠ هـ بنى الفرنج حصناً منيعاً بمخاضة الأحزان (جسر بنات يعقوب قرب صنف) فعز ذلك على صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين. فتح الحضرن وهدمه وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل:

فإن تكن الدولات قسماً فإنها لمن يرد الموت الزؤام تؤول

وَمَنْ هُوَ الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكمساء صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس على الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربها على عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعوق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين

للقضاء على الدين الإسلامي فسار البرنس ارنا (رينو) Renaud صاحب الكرك إلى تيماء في سنة ٥٧٧هـ وسنة ١١٨٢م مستطلعاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه وإلى دمشق وسار مجدداً إلى الكرك فنهب بلادها وصد ارنات عن التقدم ولكن في سنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز في دماغ البرنس ارنات وعزم على حصد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفككة وحملها إلى بحر إيالة ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها في البحر الأحمر وحصر من في إيالة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قائد أسطوله لؤلؤاً بمطاردته فسار وبلغ إيالة وقتل من عليها وتبع من في البحر بمراكبه وجنده فأدركهم في ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده وما زال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيراً ونحرهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طبريا فخيم في الأقحوانة ونزل الفرنج طبريا فشد فرخشاه على بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية فغزا بيسان وخربها وأغار على الكرك ولما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبسطية وبنين وفي سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت (قمص) طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالناصرية وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عنده من أسراء. وقد طاش سهم البرنس أرنات فغدر بعهدده بعد الهدنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسر رجالها. فغضب الأفضل بن صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء في قرية صفورية فكسروهم وقتل عدداً من شجعانهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات لمعركة فاصلة إما أن تكون له أو عليه.

## ٥٢ - معركة حطين (\*)

رأى صلاح الدين الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات في داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة إنطاكية والرابعة الرها وارفأ وأن

(٠) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا

تلك المقاطعات بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالها وأعندهم البرنس ارناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لأخت صلاح الدين وكرر نكته لليهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم وفوقوا إليه سهام السياب واللعن وقالوا: «ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم». فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشاً عرمرماً وعسكر فى سهل الاقحوانة واستشار فأشار عليه بعضهم بترك منازلة الأعداء والاكثفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجرتهم فعزم على المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق ما فيها من الذخائر الفاضلة عن حاجته واحتفظ بمنابع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشه وساروا إلى ملاقاته فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصددهم عنه وأمر بإحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظمأ كل مأخذ وحملوا حملات عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استماتوا فى حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقيمتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتالهم فى حطين بثلاثين ألفاً خلا الأسرى فقد أسروا كثيراً من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاي ورنو (ارناط) صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فائزين جلس صلاح الدين فى خيمته وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس ارناط فغضب السلطان وقال للملك إن هذا الملعون لم يشرب بإذنى فينال أمانى ثم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسه وضرب رقبتة وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدرًا ثم أمر به فسحب إلى خارج المكان وباسط الملك وأمنه.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التى ختمت الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ عيداً سنوياً وتذكاراً روحياً عظيماً فإن فيه خضت شوكة الجيش الصليبي وقل حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أماناً ووفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجاء الملك العادل من مصر وفتح حسن مجدل يابا (مجدل الصادق) ويافا وساحت عساكر السلطان فى البلاد ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤاً أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على التكهفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشه إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب القاهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة والولد ديناران فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يوماً يصبح مملوكاً للعرب فيبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء الملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريك إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معه من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملأهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الإفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبورى ألف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضاً لأخيه العادل وكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب

العمود وأرسل معهم جنوداً لإيصالهم إلى المدن التي كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم إخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتاموا فى القيافى وتشتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربى ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربى وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحاً فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبى عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبيى فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعه نور الدين زنكى فى حلب وبلغ فى إتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة «حنة» مدرسة للشافعية (الصلاحية) وأخذ قسماً من منزل البطريرك وحولّه إلى جامع وخانقاه للصوفية (الخانكى). وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب افراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالأعلى عليه حتى قال ابن الأثير (لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين فإنه هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان) فأصبحت مركزاً لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

#### ٥٤ - الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الإسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدر أن وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيراً عظيماً وصدى سيئاً فى نفوس الغربيين

فقام منهم رجال كثيرون وحرصوا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدي المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثمانية على محاربة الشرق الأدنى وإعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ريكاردوس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه في إنكلترا رغبة في إنقاذ بيت المقدس ونهد إمبراطور ألمانيا بربوسا (ذو اللحية الحمراء) وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا ففرق ملك الألمان في نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج في صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطربت النار بغتة في صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصددهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكا فمر بكفر كناوخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأتقال في قرية صفورية واستعمرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعودهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة (تل الفخار) حيث توفي أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكاري العلمي الحسنى فنقل إلى القدس ولما أبل صلاح الدين عاد إلى مخيمه القديم (تل كيسان) فوجد الفرنج يجدون في حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على بن عريف النحاسين الدمشقي نغماً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمان السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أتقال المسلمين إلى قرية الدامون (سيمون) الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأموري إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم في مدينة حيفا وظل الحرب سجلاً إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجذ في قتال مسلمي عكا وشد في حصارهم فكان صلاح الدين يركب يومياً من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لثلاً يتعب عسكره من الغدو والرواح وفي ١٧ جمادى الأخرى استولى الفرنج على عكا سلماً بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوباً وعسكر صلاح الدين بجانبهم من جهة الشرق فالتقوا في مدينة ارسوف (على مقربة من حرم على بن سليم) واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ

الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى إنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحداً. أما صلاح الدين فإنه استشار قواده في شأن عسقلان فقررروا هدمها لمكانة موقعها الحربى ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق بين مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقاً أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية خيفة هجمات الحصون الساحلية. فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصنها وهدم قسماً من اللد وخرب قلعة الاطرون. فأخذ الركنيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريبه ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملك العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وهى :

- أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدي المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافاً إلى أقطاعها فى بلادها ووافق على ذلك صلاح الدين إلا أن القيسيين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانتقضت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الاطرون ففرغ منهم وأمر بعمارة سور بين القدس وتجديد ما رث منه وكان ينقل الحجارة بنفسه مع العمال وأحكم المحل الذى ملك منه البلد وأتقنه وقواه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها لما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج على حصن الداروم<sup>(١)</sup> ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فرددتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بجوار الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون

---

(١) بين غزة والعريش ونظنه تل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخاً من البحر كما ذكر .

القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفي شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١ - أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين في يده وأملاك الفرنج في أيديهم وهي يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وأعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى (مناصفة) مشتركة بين الفريقين.

٢ - وأن تكون الهدنة ٣ سنين و ٨ شهور.

٣ - وألاً يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤ - وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح (صلح الرملة) وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى إنكليرا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية في صفر سنة ٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن في القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموي وقبره مشهور ولا بد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وإن كان صلاح الدين كردياً<sup>(٥)</sup> فإنه كان من عظماء رجال الإسلام وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

١ - معاملته الحسنة للصليبي بيت المقدس مع أنهم من الد أعدائه.

٢ - ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣ - إكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤ - حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنه كان مفرطاً في الحلم وكل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

---

(٥) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب

إن صلاح الدين لم يكن قائدًا فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار على الإسلام ويدافع عنه بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجنبي من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك في خزينته سوى دينار وأربعين درهماً فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء.

### ٥٥ - صلاح الدين ومواسم فلسطين وشيء عن القبائل:

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج في وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فأسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس مؤقتاً قبائل بني حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحرارة بنى مرة في جهة الغرب الشمالي إلى سوق الفخر «خان الزيت» وحرارة السعدية لبني سعد<sup>(١)</sup> ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حرارة بنى زيد وحرارة الجرامنة سوق القطنين ثم وزعهم على البلدان التي حول القدس فأخذ بنى زيد ١٩ قرية شمال رام الله والحق بهم بنى مرة وهم ثمانى قرى وبنى سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا «مجدل الصادق» وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسماً فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البيارق «الجمعة الحزينة» فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسماً فى النبى عنبر يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بسواحل يافا والعراق ووادى الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسم النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسماً فى

(١) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مضافة فى

حيهم.

أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلفت عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار والى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالحة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبی موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس. وتتوافد قبائل شرقى الأردن إلى مشهد النبی موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفيير عام قد تجمهروا فى شعبات أخذ عسكر بنى صالح بنى زيد وبنى عنير بنى حارث وبنى صالح الرملة ورويين يافا وحسين عسقلان ومنطار العربان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور وبنى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤناتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرثقه لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعود ما جعله يحتاط ويخشى إن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلمًا فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالى الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيل والثناء الخالد لانه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائدها الاقتصادية والاجتماعية.

٥٦ - فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠ هـ - ٦٤٨ هـ وسنة ١١٩٣ م - ١٢٥٠ م:

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألف بين عدة خيوط غير مؤتلفة ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس صلاح الدين بهذا

الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد والعساكر غير مرة وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعه دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبنائياس وسورية الغربية فلما توفى صلاح الدين انتكحت الغزل وانتشرت جماعاته أفراداً وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وريض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتسمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاث دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادل ولع بإغراء بنى أخيه على بعضهم بعضاً وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء على ما سواه. فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل «أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجىء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد» فرفض الأفضل وظل منصاعاً لدسائس الملك العادل فحتمق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فأتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورها فرضى وقفل راجعاً ولكنه عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل على فتح مصر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس واليهما سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فاذتلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالاً العزيز سراً وتوسط فى الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح وبعدئذ أقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلاً وأخذها منه وعوضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه      عثمان قد أخذنا بالظلم حق على  
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي      من الأواخر ما لاقى من الأول  
فأجابه الناصر :

غضبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر  
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر  
فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكماً بين العرب هاجموهم فناهضهم العادل  
وخيم على عين جالوت «بين جنين وبيسان» ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن  
توفى الملك العزيز سنة ٥٩٦ هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافه الأمير جركس  
«جهاركس» وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون<sup>(٥)</sup> القصرى  
حاكم نابلس فقويت شكوته وأرسلوا إلى العادل فجاء وأخذ البلاد من الأفضل  
وعوضه ميفارقين وبلاداً أخرى ولكنه لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧ هـ حدث زلزال هدم قسماً من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠ هـ  
تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب جبل طور  
الناصرية ثم عقدوا معاهدة على ما يأتى.

- أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا ويتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بينهما  
كاللد والرملة وغيرهما.

ثم فى سنة ٦٠٩ هـ حُرِبَ الملك العادل حصن كوكب «قرب طبريا» ومحا  
أثره وبنى حصناً على جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤ هـ مخافة أن  
يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد. ثم توفى العادل بعد أن  
قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم على جميع  
سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن  
يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى على باب المسجد وأوقف  
لمسجد الخليل حاصلات قريتي دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥ هـ سار الملك  
الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول<sup>(٥)</sup>  
مشاقاً لإخوانه فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه  
كانت تحذره بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجيدات والحملات الصليبية

(٥) المنتسبة إليه المدرسة «المامونية»

(٥) تل يبعد إلى الجنوب من عزة ١٥ كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.

المتعاقبة التي حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحکم وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاء فريدريك إمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

١ - أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بعض ملحقاتها بشرط ألا يعمر السور الذي خزه الملك المعظم ولا يتصدوا لقبّة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢ - أن تظل «الرساتيق» الخليل ونابلس وطبريا والغور في يد المسلمين. فتم هذا الاحتلال السلمى الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الإمبراطور فريدريك كان محروماً من البابا وغضب المسلمون على الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانه وأبناء عمه. وفى سنة ٦٣٥ هـ توفى الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل وفى سنة ٦٣٦ هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقصة إلى الملك الجواد وأخذ منه دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد «صاحب حمص» وهجما على دمشق وأخذها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرّب قلعتها التى بناها الفرنج وخرّب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاها فتوجهها إلى مصر وفتحها فخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨ هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١ هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضد بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتيها ثم أباحا لهم القدس فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيز خان.

## ٥٧ - الخوارزمية:

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقى بحر قزوين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون

وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفریق بين دين ومذهب وصدق أن كان الناس فوضى قد انقسموا على أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لا يهمله سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شيء، إذا زاحمه قريبه استعان عليه بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء على ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حنقه بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحدرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم إليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معه على شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٣٢ هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة وخرّب القبر المقدس والقي الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها وفى سنة ٦٤٣ هـ فتحها وخاس بعهدته مع الخوارزميين فنقموا عليه وحالفوا الملك الصالح إسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون وردوا على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧ هـ وفى سنة ٦٤٥ هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجرودوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فخرجت على مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففر أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويأفا مخافة أن يأخذها منه الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيراً رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يبق للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أذلاء

غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١ م وسنة ٦٩٠ هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطربوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد أن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

## ٥٨ - أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو أضرتها؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنه يفتقر إلى تفصيل ولكننا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعاً أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة.

١ - أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخلة الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين أضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذا هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحي العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢ - أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاء لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا على جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهيرياً ولزموا إخوانهم مسلمى العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطى وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣ - فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى. القضاء المبرم

عَلَى الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ما كانت عليه سابقاً.

٤ - تلوّخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ومبادئه لأن مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون عَلَى أن المسلمين تقيّدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثي اليهود والقاتلي الأسرى والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحرقوا الديانة المسيحية في مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحه في تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة في بيت لحم والناصرية والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل عَلَى أن حاملها ليسوا عرباً ولكن اصطبغوا وطبخوا في معمل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا في البلاد واندغموا في أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى «صليبيه» شتر الوجه لا يتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبيون كما ورد في تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير في الزملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثروا عَلَى لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عرباً يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق عَلَى مدينة نزع عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد في رحلة ابن جبير الأندلسي ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

«هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى «هونين» بين الفرنج والمسلمين ولهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة عَلَى السواء

ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم.. الخ. ثم جاء إلى تينين في عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب «جمارك» فقال والضريبة دينار وقيراط سورية ولا اعتراض على التاجر ثم مرّ بضياح كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية على كل رأس ونزل بضية من ضياح عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرافأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال: «إنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار «جمرك» وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال إنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعي وعرج على تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال إنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خراباً يباباً [ ولا ندري لماذا لم يزر عسقلان لما كان في غزة ] ثم سافر منها إلى الرملة فقال إنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسي. ثم خرج منها إلى نابلس وقال إنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبي عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث في سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن شيخ قبيلة المعجامة فمر بذراعه ثم بصرى وزيءاء «جيزة» واللجوم وحصن الكرك ووصفه وبالغ في مناعته».

## ٥٩ - فرسان مار يوحنا «الاسبتاليون»

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألّفوها لتمرير الجرحى والمرضى وخدمة الإنسانية البحتة «كالصليب الأحمر» فاتخذوا سمة خاصة وهى رسم صليب ذى ثمانى نقط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق افتميموس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لمواساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى إنهم كانوا أشد الجنود الصليبية على صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم أمامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولا يزال منهم جماعة تمثلهم وتحىي ذكرهم فإنهم أنشأوا فى القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعاً بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيدى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم ومداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضاً مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقى بالقرب من سوق حان الزيت.

## ٦٠ - فرسان الهيكل

تألّفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وإيصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدى المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة اليأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقراً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم الدين بأنه لا يأسر أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قبض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسيرة الأيوبية ففضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠ م وسنة ٦٤٨ هـ حيث ضعفت

شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨ هـ وانتخب بعده «شجرة الدر» وهي الملكة الوحيدة التي توجت في الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية في حكمه فعظم الخبر على المصريين وخلصوها وولوا أمرهم عز الدين ايبك «الملوك» ولقبوه بالملك المعز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنه لم يرق لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون ايبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزماً واحتدم الخلاف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحتة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسي على أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الأردن. ثم ثار ايبك سنة ٦٥٢ هـ وخلص الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك على المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطعموا صاحبها في ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العريش. وفي سنة ٦٥٧ هـ قدمت عساكر هولاكو التتري وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة ٦٥٩ هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.